عصر التكنولوجيا

إن عصر التكنولوجيا والكومبيوتر رفع مرتبة الأثرياء إلى أنصاف الآلهة (أ ف ب)

ثم بقدرة الرأسماليّة وصل إلى حلم الثراء، مثل فيلم ويل سميث بعنوان «السعي نحو السعادة»، وغيره من الأفلام المشابهة. وقصّة ثراء ستيف جوبز لا تختلف: عن رجل قرّر أن يترك الدراسة الجامعيّة، وأن «يحقّق حلمه» في تأسيس واحدة من أولى شركات الكومبيوتر، والباقي «دخل التاريخ»، كما يقول الأميركيّون. عندما أنشأ ستيف جوبز شركة «أبل» مع اثنين من أصدقائه، بدأ في مسار لم يحد عنه: وهو الاستغلال الماديّ حتى للأقربين، واحتكار الرصيد الفكري والمادّي للمنتجات. حتى شريكه الأوّل، المهندس ستيف وزنياك (المعروف في عالم الكومبيوتر الاجتماعي باسم «ووز» تحبّباً)، استغلّه ولم يلق قسطه من الرصيد لعمله وابتكاراته. لم يخفِ هذا الهيبّي المُتقاعد خيبته من شريكه السابق. لم يكن جوبز يستطيع أن يكتب برامج كومبيوتر: كل العمل العلمي الذي أسّس لشركة «آبل» كان من جهد «ووز». ولقد شرح «ووز» في كتاب إيزكسون سبب الفراق بين الاثنين: كان جوبز يسعى وراء الربح المادّي الوفير، أما «ووز» فكان يوزّع أسهمه على سائر العاملين الذين أسقطهم جوبز من حسابه. العمل في مجال الكومبيوتر بالنسبة لـ«ووز» كان في تسهيل حياة الناس والتسلية والإبداع والابتكار والأخوّة الإنسانيّة على الطريقة الهبّية، بينما كان لجوبز الربح والطمع والمنافسة الحادّة والاقتناص والاحتكار.

والذين واللواتي يضعون صورة ستيف جوبز من العرب كصورتهم على «فايسبوك» يحتاجون إلى أن يدقّقوا قليلاً أو كثيراً في تاريخ الرجل، وفي تاريخ احتكاريّي جشع عصر الكومبيوتر. هذا هو الجانب المخفي في صناعة الكومبيوتر وأجهزة التكنولوجيا الحديثة: كما كانت الصناعة التقليديّة تخفي عرق العمّال ودماءهم وجهودهم، وتخفي شظف العيش الذي يرزحون تحته، فإن أجهزة الكومبيوتر تخفي عرق الأطفال والنساء والعمّال المُفتقرين إلى أدنى حقوق العمّال الأساسيّة في مصانع لا رقابة عليها في مناطق نائية من العالم لا تزورها كاميرات البرامج التلفزيونيّة. كما أن الأجهزة تلك تخفي السرقة الموصوفة التي تلجأ إليها الشركات العملاقة من أجل زيادة أرباحها دورياً. وفي الحياة الشخصيّة لجوبز، وهي يجب أن تكون ملكاً له وحده، لكنه هو أخرجها للعلن عندما قذف أمّ ابنته وعيّرها في وسائل الإعلام حين أعلمته بلطف أن ابنتها هي ابنته (وكان مرتبطاً بها لسنوات). قال الرجل لوسائل الإعلام إن احتمال أبوّة الطفلة يتشارك فيها الآلاف من الرجال في كاليفورنيا. فقط عندما خضعت الطفلة لفحص الحمض النووي، قبل جوبز بالأبوّة مُرغماً (ولم تقطن في منزله إلا بعد سن الرابعة عشرة). هل هذا هو المثال الذي يودّ البعض، عن معرفة أو عن جهل، بثّه للعلن؟

وخلافاً لبيل غيتس الذي أنشأ مؤسّسة خيريّة عملاقة وبمليارات الدولارات لم يكترث جوبز يوماً للعمل الخيري، ولا حتّى بعدما علم أنه يعيش سنواته الأخيرة (مع أن غيتس هذا لم يستفق للعمل الخيري إلا بعدما رفعت وزارة العدل الأميركيّة دعوى شهيرة ضدّه وضدّ شركته بسبب الإجراءات الاحتكاريّة التي كانت تفرضها لنشر برامج «ويندوز» في أجهزة الكومبيوتر). العمل الخيري بالنسبة لأصحاب المليارات مطيّة للعمل السياسي أو عمل علاقات عامّة لتحسين صورة أو لأسباب ضرائبيّة (كما في أميركا) أو الدخول إلى سوق كانت مُغلقة في دولة ما.

وفي تبجيل ستيف جوبز وبيل غيتس يظنّ الشاب العربي أن الرجلين هما مخترعان ومُبتكران، لكن قدراتهما رأسماليّة أكثر مما هي علميّة. إن الرجلين سبقا غيرهما في استشراف المستقبل عن شيوع جهاز الكومبيوتر وعن دخوله إلى المكاتب والشركات، وعن تسهيله للأعمال وللمعاملات بين البشر. هي القدرة ليس فقط على قراءة السوق، بل على تقرير مسار السوق. عندما كان جوبز يشرف على إنتاج جهاز ما كان يقول لمستشاريه المُشكّكين إن الناس سيشترون الجهاز «لأننا سنجعلهم» يشعرون بأنهم يحتاجون إلى الجهاز. وبراعة

> حتى النصابون والمشعوذون اللبنانيون في العالم ينالون التقدير في إعلام القومية اللبنانية

> مارس جوبز الاستغلال المادي على الأقربين واحتكار الرصيد الفكري والمادي للمنتجات

جوبز تكمن في التسويق والدعاية والترويج والتصميم. حتى صندوق الـ«آي فون» كان يخضع لتصميم من فنّانين كي يكون الجهاز جزءاً من رزمة فنيّة جذّابة. وحملات الإعلان التي رافقت إطلاق المرحلة الثانية من شركة «آبل» بعد عودة جوبز إليها كلّفت ملايين الدولارات، مثل دخل تصميم دكاكين شركة «آبل» في المجمّعات التجاريّة في صميم عمل جوبز نفسه. ليس هناك عفويّة في الاقتصاد الرأسمالي، وليس هناك عفويّة في الديموقراطيّة الأميركيّة.

تحدّث كارل ماركس (رضي إنغلز عنه) في الفصل الأوّل من كتاب «رأس المال» عن مفهوم «الولع بالسلع»، كأن الرجل كان يستشرف لقرن أو أكثر بعد زمنه. إن أجهزة الهاتف وألواح الكومبيوتر المحمول، بالإضافة إلى كمية هائلة من الألعاب الإلكترونيّة أصبحت لصيقة بالفرد. كانت الرأسماليّة تنتفع من سدّ حاجات البشر إلى منتجات معيّنة، غذائيّة أو صناعيّة أو غيرها. لكن الرأسماليّة في عصر الإلكترونيّة لا تأبه لسدّ الحاجات، بل هل بلغت درجة من الوقاحة والقدرة العجائبيّة تجعلها مستغرقة في خلق حاجات لم تكن في بالنا قط، من أجل تراكم الثروة من سدّها على نطاق واسع. كان العرب يشربون القهوة قبل القرن السادس عشر (وقد حاول العلماء منعها آنذاك، لكنهم فشلوا) وبعض مصطلحات صنع القهوة في الغرب مأخوذة من اللغة العربيّة (مثل كلمة موكا المأخوذة من مرفأ «مخا» في اليمن، حيث نشأ تصدير القهوة)، ولم يحتاجوا في التمتّع بالقهوة (ذلك للذين يتمتّعون ويتمتّعن بالقهوة فعلاً، وهي لذّة لم تصلني قطّ) إلى مختلف أنواع القهوة ومشتقاتها من مقاهي «ستاربكس» (المُدرجة على قوائم مقاطعة العدوّ الإسرائيلي). «ستاربكس» خلقت ودغدغت وشدّت المُستهلك والمُستهلكة وأبقتهما في شباكها عبر زيادة مفرطة في نسبة الكافيين لضمان الإدمان (وهذا مُثبت في دراسات طبيّة أجريت على قهوة «ستاربكس»). وقياساً، فإن شركة «آبل» تقنعنا، لا بل توهمنا بأننا نحتاج إلى منتجاتها، وهي تبقينا في حبائلها عبر التجديدات والتحديثات الثانويّة والأقل ثانويّة التي تدخلها على الأجهزة من موسم إلى آخر، أو التحديثات الضروريّة بدافع الربح والجشع.

يتعلّم الجيل العربي الجديد عبادة نماذج مُستوردة من الرأسماليّة الأميركيّة المتوحّشة. وتتحوّل الرموز الثوريّة مثل تشي غيفارا أو ماو تسي تونغ برسم آندي ورهل، مُصمّم علبة حساء «كامبل» ومنتجات أميركيّة أخرى إلى خواء تجاري مُفرّغ من المضمون السياسي. لم يعد تشي غيفارا ماركسيّاً على يد التجارة العالميّة للقمصان والملصقات (جبران تويني كان يضع صورته في مكتبه، لكن من المشكوك أنه كان يعرف عن كتابات غيفارا، أو كان يفقهها لو أنه قرأها). ترفع العولمة الثقافيّة (الذراع الضاربة للعولمة الاقتصاديّة، والمُحضّرة للعولمة الحربيّة المترافقة مع الأنواع الأخرى) أصحاب المليارات إلى نماذج معبودة حول العالم. والمنظمة اليساريّة (ألوية الخبز الإحيائيّة) التي ترمي بكعكة الـ«تورتة» (من يذكر «تورتة الجدّة بطّة في «مجلّة ميكي» المصريّة؟) في وجوه الأثرياء والمشاهير كي تنزلهم من عليائهم (مع أن نضال رمي الـ«تورتة» لا يغيّر أو يصنع التاريخ) وكي تغيّر صورهم المنتشرة بإرادة تجاريّة تسويقيّة (سألتُ واحدة ناشطة في المنظمة المذكورة عن طريقة إعداد الكعكة. سألتها هل تكون قديمة أو عفنة؟ أجابت منفعلة: على العكس من ذلك. نحن نخبزها في اليوم نفسه، مستخدمين أفضل ما لدينا من عناصر، ولا نستعمل إلا الفواكه الطازجة).

إن شركات التكنولوجيا الحديثة شركات ظالمة وقامعة ومُتسلّطة. هي أيضاً، كما علمنا أخيراً، أداة بيد الحكومة الأميركيّة للتجسّس على سكّان المعمورة. كان بوب رايت يُعتبر فذّاً لأنه أدخل أسلوب الطرد القسري لأكثر من 10 في المئة من موظّفي شركة «جنرال إلكتريك» فقط «للترشيق». وستيف جوبز كان يرفض مواجهة من يطرد من الشركة أو حتى تعويضهم. مرّة قرر طرد نحو 3000 من موظّفي الشركة من دون سبب ومن دون تعويض (القصّة واردة في كتاب إيزكسون). رفض أن يمنحهم مهلة أسبوعين. وعندما واجهه مستشاروه بالنسبة للمهلة، قال لهم (بجديّة): اصدروا القرار بمفعول رجعي قبل أسبوعين. وشركة «أمازون» (وصاحبها ابتاع أخيراً شركة الـ«واشنطن بوست») تفرض طرداً لمن لا يقع في داخل رسم بياني للتفوّق يُعدّ من قبل كل مدير لخمسين موظّفاً وعاملاً أو أكثر. هذه الجوانب لماذا لا تظهر في التقارير التبجيليّة للشركات تلك؟

ملاحظة: يعترف الكاتب بأنه مثل كثيرين وكثيرات وقع ضحيّة للترويج الرأسمالي الصفيق، ويعترف بأنه مثل كثيرين وكثيرات بات شديد التعلّق بجهاز الـ«آي فون» والـ«آي باد» وغيرهما من الأجهزة الإلكترونيّة الجذّابة. تبّاً لي، وتبّاً لكم ولكنّ.

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)